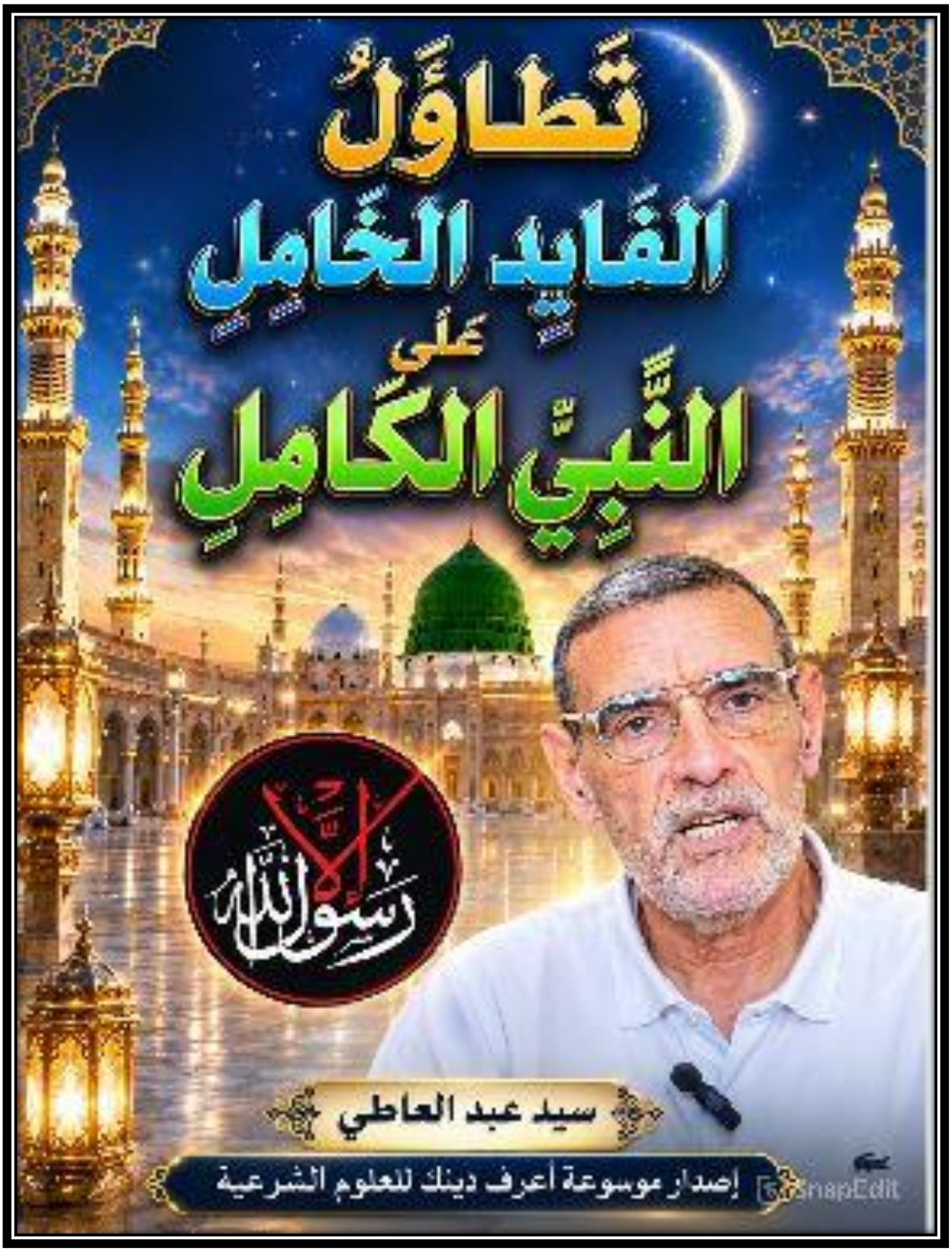
تَطاوُلُ
الفَايِدِ الخَامِلِ
عَلَى
النَّبِيِّ الكَامِلِ
رسول الله
سيد عبد العاطي
إصدار موسوعة أعرف دينك للعلوم الشرعية
SnapEdit

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

• فَقَدْ دَرَجَ أَعْدَاءُ المِلَّةِ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالمُلْحِدِينَ وَأَذْيَالِهِمْ مِمَّنْ يَتَسَمَّوْنَ كَذِبًا وَزُورًا بِالتَّنْوِيرِيِّينَ وَمَا هُمْ إِلَّا ظَلَامِيُّونَ مَأْفُونُونَ عَلَى الطَّعْنِ فِي الإِسْلَامِ كِتَابًا وَسُنَّةً مِنْ خِلَالِ إِنْكَارِ السُّنَّةِ تَارَةً وَالإِسَاءَةِ إِلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَارَةً ، وَهَمْزِ الصَّحَابَةِ تَارَةً ، وَهَدْمِ التُّرَاثِ تَارَةً وَالمَعْرَكَةُ قَائِمَةٌ وَمُسْتَمِرَّةٌ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا ، وَالنَّتِيجَةُ مَحْسُومَةٌ انْتِصَارُ الحَقِّ عَلَى البَاطِلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا }(الإِسْرَاء: ٨١).

وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ }(الرَّعْد: ١٧).

وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }.(الرُّوم: ٤٧).

• فَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَالبَاطِلُ مَخْذُولٌ مَدْحُورٌ هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَمِنَ الطَّامَّاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا القَزْمُ السَّفِيهُ المَدْعُوُّ (مُحَمَّد الفَايِد) المَغْرِبِيُّ–

وَأَهْلُ المَغْرِبِ شُرَفَاءُ كُرَمَاءُ لَا يُمَثِّلُهُمْ هَذَا الخَامِلُ السَّفِيهُ- أَنَّهُ سَخِرَ مِنْ رَسُولِ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَمِنْ أُمِّيَّتِهِ وَأَنْكَرَ أُمِّيَّتَهُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عَلَى عَادَةِ الزَّنَادِقَةِ وَالرَّوَافِضِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَعْدَاءِ المِلَّةِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَغِيرَةً عَلَى الجَنَابِ النَّبَوِيِّ سَطَّرْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ وَوَسَمْتُهَا بِهَذَا العُنْوَانِ { تَطَاوُلُ الفَايِدِ الخَامِلِ عَلَى النَّبِيِّ الكَامِلِ }، نَعَمْ فَقَدْ تَطَاوَلَ هَذَا الخَامِلُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-الَّذِي تَحَقَّقَ فِيهِ الكَمَالُ البَشَرِيُّ وَأَرْسَلَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَقَالَ تَعَالَى:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }(الأَنْبِيَاء:١٠٧).

وَمَدَحَ خُلُقَهُ فَقَالَ:{ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ }[القَلَم:٤].،وَصَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ جَلَّ وَعَلَا وَالمَلَائِكَةُ الكِرَامُ وَأَمَرَ أَهْلَ الإِيمَانِ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى:{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }.(الأَحْزَاب:٥٦).،وَهَذَا فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى كَمَالِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَرِفْعَةِ دَرَجَتِهِ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، وَرَفْعِ ذِكْرِهِ.

-وَ { إِنَّ اللَّهَ } تَعَالَى { وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ } عَلَيْهِ،- أَيْ: يُثْنِي اللهُ عَلَيْهِ بَيْنَ المَلَائِكَةِ، وَفِي المَلَإِ الأَعْلَى، لِمَحَبَّتِهِ تَعَالَى لَهُ، وَتُثْنِي عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ، وَيَدْعُونَ لَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } اقْتِدَاءً بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَجَزَاءً لَهُ عَلَى بَعْضِ حُقُوقِهِ عَلَيْكُمْ، وَتَكْمِيلًا لِإِيمَانِكُمْ، وَتَعْظِيمًا لَهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَحَبَّةً وَإِكْرَامًا، وَزِيَادَةً فِي حَسَنَاتِكُمْ، وَتَكْفِيرًا مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَأَفْضَلُ هَيْئَاتِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَا عَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ:{

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ }

وَهَذَا الأَمْرُ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ مَشْرُوعٌ فِي جَمِيعِ الأَوْقَاتِ، وَأَوْجَبَهُ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي الصَّلَاةِ.،فَهُوَ النَّبِيُّ الشَّاهِدُ وَالمُبَشِّرُ وَالنَّذِيرُ وَهُوَ الدَّاعِي إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَهُوَ السِّرَاجُ المُنِيرُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَالَ اللهُ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا }.(الأَحْزَاب:٤٥–٤٦). أَيْ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِكَ بِإِبْلَاغِهِمُ الرِّسَالَةَ، وَمُبَشِّرًا المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالجَنَّةِ، وَنَذِيرًا لِلْعُصَاةِ وَالمُكَذِّبِينَ مِنَ النَّارِ، وَدَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ بِأَمْرِهِ إِيَّاكَ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا لِمَنِ اسْتَنَارَ بِكَ، فَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الحَقِّ كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَإِضَاءَتِهَا، لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ.

• ثُمَّ يَأْتِي هَذَا الخَامِلُ السَّاقِطُ صَاحِبُ الطَّوِيَّةِ المَعْلُولَةِ ، وَالعَقِيدَةِ المَدْخُولَةِ ، وَالجَهْلِ الكَثِيفِ ، وَالعَقْلِ السَّخِيفِ وَيَطْعُنُ فِي الجَنَابِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، يَطْعُنُ فِي صَاحِبِ المَقَامِ المَحْمُودِ ، وَالحَوْضِ المَوْرُودِ ، وَاللِّوَاءِ المَعْقُودِ ، وَالتَّاجِ المَنْضُودِ ، سَيِّدِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَخَلِيلِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، فَيُنْكِرُ أُمِّيَّتَهُ الَّتِي هِيَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى فَقَدْ جَعَلَ اللهُ كَلَامَهُ فِي صَدْرِهِ ، فَعَلَّمَ بِهِ مِنْ بَعْدِ الجَهَالَةِ ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنْ بَعْدِ العَمَى ، وَأَقَامَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ قَالَ النَّاسُ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا

صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَتَعَالَوْا بِنَا لِنَرُدَّ هَذِهِ الفِرْيَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا (الفَايِد) الخَامِلُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ الكَامِلِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَنُبَيِّنَ الآيَةَ وَالمُعْجِزَةَ فِي أُمِّيَّتِهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:

• لَقَدْ أَثْبَتَ اللهُ تَعَالَى أُمِّيَّةَ رَسُولِهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ أَذْكُرُ مِنْهَا:

(١) قَوْلَ اللهِ تَعَالَى:{ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }.(العَنْكَبُوت:٤٨).

–قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– فِي تَفْسِيرِهَا:{ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ، أَنَّهُ جَاءَ بِهِ هَذَا النَّبِيُّ الأُمِّيُّ، الَّذِي عَرَفَ قَوْمُهُ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَسَائِرَ أَحْوَالِهِ، وَهُوَ لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ خَطًّا، وَلَا يَقْرَأُ خَطًّا مَكْتُوبًا، فَإِتْيَانُهُ بِهِ فِي هَذِهِ الحَالِ، مِنْ أَظْهَرِ البَيِّنَاتِ القَاطِعَةِ، الَّتِي لَا تَقْبَلُ الارْتِيَابَ، أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ:

{ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو }– أَيْ:

تَقْرَأُ { مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا } لَوْ كُنْتَ بِهَذِهِ الحَالِ { لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } فَقَالُوا: تَعَلَّمَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، أَوِ اسْتَنْسَخَهُ مِنْهَا، فَأَمَّا وَقَدْ نَزَلَ عَلَى قَلْبِكَ، كِتَابًا جَلِيلًا، تَحَدَّيْتَ بِهِ الفُصَحَاءَ وَالبُلَغَاءَ، الأَعْدَاءَ الأَلِدَّاءَ، أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَعَجَزُوا غَايَةَ العَجْزِ، بَلْ وَلَا حَدَّثَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِالمُعَارَضَةِ، لِعِلْمِهِمْ بِبَلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ، وَأَنَّ كَلَامَ أَحَدٍ مِنَ البَشَرِ، لَا يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ مُجَارِيًا لَهُ أَوْ عَلَى مِنْوَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:{ بَلْ هُوَ

آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }(العَنْكَبُوت: ٤٩) {.

• تَبْصِرَةٌ:

-إِعْجَازُ القُرْآنِ العَظِيمِ: مَجِيءُ القُرْآنِ بِهَذَا العِلْمِ الغَزِيرِ وَالأَخْبَارِ الدَّقِيقَةِ وَالتَّشْرِيعَاتِ العَظِيمَةِ عَلَى رَجُلٍ أُمِّيٍّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى.

-قَطْعُ طَرِيقِ الشَّكِّ: لَوْ كَانَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقْرَأُ أَوْ يَكْتُبُ قَبْلَ نُزُولِ القُرْآنِ لَوَجَدَ المُبْطِلُونَ وَالكُفَّارُ سَبِيلًا لِلشَّكِّ وَالطَّعْنِ، وَلَأَدَارُوا الشُّبُهَاتِ بِأَنَّ تَعَلُّمَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ.

-كَمَالُ أُمِّيَّةِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: تَعُدُّ الأُمِّيَّةُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وِسَامَ كَمَالٍ وَمُعْجِزَةً دَالَّةً عَلَى صِدْقِهِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ حَيْثُ تَكُونُ نَقْصًا.

-دَحْضُ شُبُهَاتِ المُسْتَشْرِقِينَ وَالمُكَذِّبِينَ: تُبْطِلُ الآيَةُ مَزَاعِمَ مَنِ ادَّعَى أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اقْتَبَسَ القُرْآنَ مِنْ أَحْبَارِ اليَهُودِ أَوْ رُهْبَانِ النَّصَارَى أَوْ طَالَعَ الكُتُبَ المُتَقَدِّمَةَ.

(٢) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ

الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.(الأَعْرَاف:١٥٧).

-قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي تَفْسِيرِهَا:{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ } احْتِرَازٌ عَنْ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ المَقْصُودَ بِهَذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وَالسِّيَاقُ فِي أَحْوَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الإِيمَانَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شَرْطٌ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِيمَانِ، وَأَنَّ المُؤْمِنِينَ بِهِ المُتَّبِعِينَ، هُمْ أَهْلُ الرَّحْمَةِ المُطْلَقَةِ، الَّتِي كَتَبَهَا اللهُ لَهُمْ، وَوَصْفُهُ بِالأُمِّيِّ لِأَنَّهُ مِنَ العَرَبِ الأُمَّةِ الأُمِّيَّةِ، الَّتِي لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ، وَلَيْسَ عِنْدَهَا قَبْلَ القُرْآنِ كِتَابٌ.

{ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ } بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ، الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا وَأَجَلِّهَا، مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَيَنْهَى عَنْهُ. وَأَنَّهُ { يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ } وَهُوَ كُلُّ مَا عُرِفَ حُسْنُهُ وَصَلَاحُهُ وَنَفْعُهُ.

-{ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ } وَهُوَ: كُلُّ مَا عُرِفَ قُبْحُهُ فِي العُقُولِ وَالفِطَرِ.

-فَيَأْمُرُهُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى الجَارِ وَالمَمْلُوكِ، وَبَذْلِ النَّفْعِ لِسَائِرِ الخَلْقِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالبِرِّ، وَالنَّصِيحَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَيَنْهَى عَنِ الشِّرْكِ بِاللهِ، وَقَتْلِ النُّفُوسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالزِّنَا، وَشُرْبِ مَا يُسْكِرُ العَقْلَ، وَالظُّلْمِ لِسَائِرِ الخَلْقِ، وَالكَذِبِ، وَالفُجُورِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

-فَأَعْظَمُ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، مَا دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ، وَأَحَلَّهُ وَحَرَّمَهُ، فَإِنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ، وَالمَنَاكِحِ.

-{ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } مِنَ المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ وَالمَنَاكِحِ، وَالأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ. وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ- أَيْ: وَمِنْ وَصْفِهِ أَنَّ دِينَهُ سَهْلٌ سَمْحٌ مُيَسَّرٌ، لَا إِصْرَ فِيهِ، وَلَا أَغْلَالَ، وَلَا مَشَقَّاتٍ وَلَا تَكَالِيفَ ثِقَالٍ.

-{ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ } أَيْ: عَظَّمُوهُ وَبَجَّلُوهُ وَنَصَرُوهُ { وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ } وَهُوَ القُرْآنُ، الَّذِي يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الشَّكِّ وَالجَهَالَاتِ، وَيُقْتَدَى بِهِ إِذَا تَعَارَضَتِ المَقَالَاتُ، { أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الظَّافِرُونَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالنَّاجُونَ مِنْ شَرِّهِمَا، لِأَنَّهُمْ أَتَوْا بِأَكْبَرِ أَسْبَابِ الفَلَاحِ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَذَا النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وَيُعَزِّرْهُ، وَيَنْصُرْهُ، وَلَمْ يَتَّبِعِ النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ }.

• تَبْصِرَةٌ:

-قَبِيحٌ بِالمَرْءِ أَنْ يُكَذِّبَ بِحَقِيقَةٍ يُوقِنُ بِصِدْقِهَا، وَيُبْطِلَ قَضِيَّةً يَعْلَمُ صَوَابَهَا؛ فَنُبُوَّةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا يُنْكِرُهَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا مُكَابِرٌ أَوْ حَاسِدٌ.

-مَا أَعْظَمَ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ، وَحِرْصَهَا عَلَى مَصَالِحِ الأَنَامِ! فَلَقَدْ أَحَلَّتْ كُلَّ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ طَيِّبًا، وَحَرَّمَتْ كُلَّ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبِيثًا.

-فِي شَرِيعَتِنَا لَيْسَ تَحْرِيمُ المُحَرَّمَاتِ يَجْرِي مَجْرَى العُقُوبَاتِ، وَلَكِنَّهُ إِنْقَاذٌ لِلْأُمَّةِ مِمَّا فِيهَا مِنَ المُفْسِدَاتِ.

-أَلَا نَشْكُرُ اللهَ الكَرِيمَ عَلَى فَضْلِهِ عَلَيْنَا؛ فَقَدْ جَعَلَ شَرِيعَتَنَا أَسْهَلَ الشَّرَائِعِ، فَوَضَعَ عَنْهَا مَا كَانَ يَثْقُلُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ التَّكَالِيفِ.

-مِنْ حَقِّ رَسُولِنَا الكَرِيمِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ العَظِيمِ: الجِهَادُ بِالسِّنَانِ، وَالقَلَمِ وَاللِّسَانِ؛ نُصْرَةً لِلرَّسُولِ الأَمِينِ، وَنَشْرًا لِهَذَا الدِّينِ فِي العَالَمِينَ.

-مَا أَشْبَهَ المُهْتَدِيَ بِنُورِ القُرْآنِ بِسَارٍ وَرَاءَ نُورٍ يُضِيءُ لَهُ طَرِيقَ الأَمَانِ! فَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ وَيَتَحَرَّاهُ؛ إِذْ يَرَى بِاتِّبَاعِهِ نَجَاتَهُ وَهُدَاهُ.

-لَقَدْ أَفْلَحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُلَّ الفَلَاحِ، وَوَرَّثُوا مَنْ بَعْدَهُمْ أَعْلَامَ الصَّلَاحِ، فَكَمْ لَهُمْ مِنْ فَضْلٍ، وَخَلَفٍ مِنَ الخَيْرِ جَزْلٍ! فَكُنْ عَلَى طَرِيقِهِمْ، عَسَاكَ تَلْحَقُ بِهِمْ.

-لَا سَعَادَةَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ وَاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ.

(٣) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }(الجُمُعَة:٢).

-أَيْ: اللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِي العَرَبِ الَّذِينَ لَا يَقْرَؤُونَ، وَلَا كِتَابَ عِنْدَهُمْ وَلَا أَثَرَ رِسَالَةٍ لَدَيْهِمْ، رَسُولًا مِنْهُمْ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا، يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ العَقَائِدِ الفَاسِدَةِ وَالأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ، وَيُعَلِّمُهُمُ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ بَعْثَتِهِ لَفِي انْحِرَافٍ وَاضِحٍ عَنِ الحَقِّ. وَأَرْسَلَهُ سُبْحَانَهُ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَجِيئُوا بَعْدُ، وَسَيَجِيئُونَ مِنَ العَرَبِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ.

وَاللهُ تَعَالَى- وَحْدَهُ- هُوَ العَزِيزُ الغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

• تَبْصِرَةٌ:

-امْتَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى العَرَبِ أَنْ عَلَّمَهُمْ بَعْدَ الجَهْلِ، وَهَدَاهُمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ، وَيَا لَهَا مِنْ مِنَّةٍ عَظِيمَةٍ فَاقَتِ المِنَنَ، وَجَلَّتْ أَنْ يَقْدِرَ العِبَادُ لَهَا عَلَى ثَمَنٍ.

-المَنْهَجُ السَّدِيدُ فِي صِنَاعَةِ الجِيلِ المُسْلِمِ يَبْدَأُ بِمَعْرِفَةِ الوَحْيِ وَتَبْصِيرِ العَقْلِ، ثُمَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّزْكِيَةِ، حَتَّى تَتَهَيَّأَ العُقُولُ وَالنُّفُوسُ لِتَلَقِّي العِلْمِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

-رِسَالَةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَاءَتْ لِتَحْرِيرِ العُقُولِ مِنْ قُيُودِ العَقَائِدِ الفَاسِدَةِ وَالأَفْكَارِ البَاطِلَةِ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ وَتَطْهِيرِهَا مِنْ أَدْرَانِ المَعَاصِي وَالآثَامِ. مُهِمَّةُ الدُّعَاةِ تَرْبِيَةُ النَّاسِ عِلْمًا وَعَمَلًا بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بِتَحْرِيكِ العَقْلِ وَإِثَارَةِ الوِجْدَانِ.

-حَرَّرَ القُرْآنُ أَرْوَاحَ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ العُبُودِيَّةِ لِلْأَوْثَانِ، وَحَرَّرَ عُقُولَهُمْ مِنَ الخُضُوعِ لِجَبَرُوتِ الخُرَافَةِ وَالأَوْهَامِ، وَطَهَّرَهُمْ مِنْ رَذَائِلِ الجَاهِلِيَّةِ وَقَبَائِحِهَا كُلِّهَا.

(٤) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }.(طه: ١١٤)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ

بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } (القِيَامَة:١٦-١٨).

-تَدُلُّ هَاتَانِ الآيَتَانِ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِنْدَمَا كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالوَحْيِ كَانَ يُرَدِّدُ خَلْفَهُ الآيَاتِ قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تِلَاوَةَ هَذِهِ الآيَاتِ المُوحَى بِهَا خَشْيَةَ أَنْ يَنْسَاهَا، فَنَهَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ لَا تَتَعَجَّلِ القِرَاءَةَ خَشْيَةَ النِّسْيَانِ، فَإِنَّا سَوْفَ نُعِينُكَ عَلَى حِفْظِهِ، وَسَنَجْمَعُهُ لَكَ فِي قَلْبِكَ فَلَا تَنْسَاهُ.

-وَمَوْطِنُ الشَّاهِدِ هُنَا أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَوْ كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، لَكَتَبَ هَذَا الوَحْيَ حَتَّى يُرَاجِعَهُ وَيَحْفَظَهُ بَعْدَ ذَهَابِ جِبْرِيلَ بَدَلَ أَنْ يُرَدِّدَ خَلْفَهُ خَشْيَةَ النِّسْيَانِ، لَكِنْ لَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أُمِّيٌّ، وَكَانَ كُلُّ اعْتِمَادِهِ عَلَى حِفْظِهِ وَلَيْسَ عَلَى قِرَاءَةٍ مِنْ كِتَابٍ.

• وَوَرَدَ فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ تُثْبِتُ أُمِّيَّةَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كَآيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى أَذْكُرُ مِنْهَا:

(١) مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ البُخَارِيُّ بِرَقَمِ (٦٩٨٢) وَمُسْلِمٌ بِرَقَمِ (١٦٠) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ-رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا- قَالَتْ:{ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ؛ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ- وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي

حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: { اقرَأْ باسمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ } حَتَّى بَلَغَ { عَلَّمَ الإنسانَ ما لَم يَعلَم }[العَلَق:١-٥].

،فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي؟ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وَقَالَ: قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ؛ أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بِالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيِ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ. وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم -فِيمَا بَلَغَنَا- حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ

جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ}.

• شَرْحُ الحَدِيثِ:

-كَانَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ الوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَكَّةَ، وَكَانَتْ أَوَّلَ أَزْوَاجِهِ حِينَئِذٍ أُمُّ المُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ غَيْرُهَا.

-وَفِي هَذَا الحَدِيثِ تَرْوِي عَائِشَةُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عَنْ بَدْءِ نُزُولِ الوَحْيِ عَلَى نَبِيِّنَا-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَتَذْكُرُ أَنَّ أَوَّلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي البِدَايَةِ، هُوَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا فِي النَّوْمِ إِلَّا تَحَقَّقَتْ وَجَاءَتْ مِثْلَ ضَوْءِ الصُّبْحِ صَحِيحَةً صَادِقَةً وَاضِحَةً، وَكَانَ يَأْتِي غَارَ حِرَاءٍ -وَهُوَ عَلَى يَسَارِ الذَّاهِبِ إِلَى مِنًى، وَعَلَى بُعْدِ (٤ كم) مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ-، { فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ } أَيْ:

فَيُكْثِرُ هُنَاكَ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى لَيَالِيَ وَأَيَّامًا عَدِيدَةً، وَيَأْخُذُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لِتِلْكَ الأَيَّامِ،ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- ، فَيَأْخُذُ زَادًا جَدِيدًا يَصْطَحِبُهُ مَعَهُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ مَرَّةً أُخْرَى، وَاسْتَمَرَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الخَلْوَةِ وَالتَّعَبُّدِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ النُّبُوَّةِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ

الوَحْيُ الصَّرِيحُ مُرْسَلًا مِنْ رَبِّ العِزَّةِ، وَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَجِبْرِيلُ وَاقِفٌ أَمَامَ عَيْنَيْهِ يَقُولُ لَهُ: { اقْرَأْ }،فَأَجَابَهُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

{ مَا أَنَا بِقَارِئٍ }، أَيْ: كَيْفَ أَسْتَطِيعُ القِرَاءَةَ وَأَنَا أُمِّيٌّ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا وَلَا عِلْمَ لِي بِهَا؟ فَأَمْسَكَ بِهِ جِبْرِيلُ وَاحْتَضَنَهُ وَضَمَّهُ ضَمَّةً شَدِيدَةً، حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ أَقْصَى مَا تَتَحَمَّلُهُ الطَّاقَةُ البَشَرِيَّةُ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ إِينَاسًا لَهُ، وَتَقْوِيَةً لِنَفْسِهِ، وَتَنْشِيطًا لِقَلْبِهِ عَلَى تَلَقِّي الوَحْيِ الإِلَهِيِّ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ، وَقَدْ أَعَادَ عَلَيْهِ المَلَكُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَاعْتَذَرَ لَهُ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمِثْلِ مَا اعْتَذَرَ لَهُ فِي المَرَّةِ الأُولَى، وَفِي الثَّالِثَةِ ضَمَّهُ المَلَكُ، وَقَالَ لَهُ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } أَيْ: اقْرَأْ مَا أَقُولُهُ لَكَ، وَأُبَلِّغُهُ إِلَيْكَ مُسْتَعِينًا بِاسْمِ اللهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَإِقْدَارِهِ لَكَ عَلَى القِرَاءَةِ؛ فَإِنَّ الخَالِقَ العَظِيمَ الَّذِي وَهَبَ الوُجُودَ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَأَوْجَدَ الأَشْيَاءَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ؛ قَادِرٌ عَلَى تَمْكِينِكَ مِنَ القِرَاءَةِ دُونَ أَنْ تَتَوَفَّرَ فِيكَ أَسْبَابُهَا، وَأَقْرَأَهُ أَوَّلَ سُورَةِ العَلَقِ حَتَّى بَلَغَ: { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }،(العَلَق:١-٥).،فَرَجَعَ بِهَا-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ فِي حَالَةٍ مِنَ الخَوْفِ تَرْجُفُ { بَوَادِرُهُ } جَمْعُ بَادِرَةٍ، وَهِيَ اللَّحْمَةُ الَّتِي بَيْنَ الكَتِفِ وَالعُنُقِ تَضْطَرِبُ عِنْدَ الفَزَعِ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-،فَقَالَ:

{ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي }،أَيْ: غَطُّونِي بِالثِّيَابِ وَلُفُّونِي بِهَا، وَطَلَبَ ذَلِكَ لِيَسْكُنَ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الرِّعْدَةِ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ الأَمْرِ وَثِقَلِهِ، فَغَطَّوْهُ كَمَا أَمَرَهُمْ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الفَزَعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي؟ وَأَخْبَرَهَا مَا حَدَثَ مَعَهُ، وَقَالَ{ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي } أَلَّا أُطِيقَ حَمْلَ أَعْبَاءِ الوَحْيِ؛ لِمَا لَقِيتُهُ عِنْدَ لِقَاءِ المَلَكِ، قَالَتْ خَدِيجَةُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: كَلَّا، لَا

خَوْفٌ عَلَيْكَ، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَلَنْ يُضَيِّعَكَ، ثُمَّ جَعَلَتْ تُهَوِّنُ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ، فَقَالَتْ: وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، بِالإِحْسَانِ إِلَى أَقْرِبَائِكَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، فَلَا تَكْذِبُ، وَتُعْرَفُ بِالصَّادِقِ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَهُوَ الضَّعِيفُ المُنْقَطِعُ، وَاليَتِيمُ، وَتَتَبَرَّعُ بِالمَالِ لِمَنْ عُدِمَهُ، وَتُعْطِي النَّاسَ مَا لَا يَجِدُونَهُ عِنْدَ غَيْرِكَ، وَتُكْرِمُ الضَّيْفَ وَتُهَيِّئُ لَهُ طَعَامَهُ وَنُزُلَهُ، وَ{ تُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ }، النَّوَائِبُ جَمْعُ نَائِبَةٍ، وَهِيَ مَا يَنْزِلُ بِالإِنْسَانِ مِنَ المُهِمَّاتِ، وَأُضِيفَتْ إِلَى الحَقِّ لِأَنَّهَا تَكُونُ فِي الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَهَذِهِ الخَصْلَةُ جَامِعَةٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ الخِصَالِ وَغَيْرِهِ.

-ثُمَّ بَعْدَ أَنْ هَدَأَ ذَهَبَتْ بِهِ خَدِيجَةُ مُصَاحِبَةً لَهُ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ وَرَقَةُ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، { وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ }؛ وَذَلِكَ لِتَمَكُّنِهِ فِي دِينِ النَّصَارَى وَمَعْرِفَتِهِ بِكِتَابِهِمْ، وَكَانَ وَرَقَةُ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، تَعْنِي:

النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لِأَنَّ الأَبَ الثَّالِثَ لِوَرَقَةَ هُوَ الأَخُ لِلْأَبِ الرَّابِعِ لِرَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَبَرَ مَا رَآهُ،فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ:{ هَذَا النَّامُوسُ } أَيْ: جِبْرِيلُ، الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَيْتَنِي فِي مُدَّةِ النُّبُوَّةِ -أَوْ الدَّعْوَةِ-{ جَذَعًا }، أَيْ: شَابًّا قَوِيًّا، وَالجَذَعُ: الصَّغِيرُ مِنَ البَهَائِمِ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ مِنْ مَكَّةَ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!}

فَأَجَابَهُ وَرَقَةُ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا أُوذِيَ وَعُودِيَ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينٍ جَدِيدٍ عَلَى غَيْرِ مَا أَلِفُوهُ وَاعْتَادُوهُ.

-ثُمَّ قَالَ وَرَقَةُ لِلنَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :{ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُ انْتِشَارِ نُبُوَّتِكَ حَيًّا، أَنْصُرْكَ نَصْرًا قَوِيًّا بَلِيغًا، وَلَكِنَّ الأَقْدَارَ بِيَدِ اللهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ }.

-ثُمَّ أَخْبَرَ الزُّهْرِيُّ أَنَّهُ بَلَغَهُ:{ أَنَّهُ احْتَبَسَ جِبْرِيلُ وَلَمْ يَنْزِلْ بِالوَحْيِ مُدَّةً قُرَابَةَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- { حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا }، أَيْ: ذَهَبَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الحُزْنِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ؛ كَيْ يُسْقِطَ نَفْسَهُ مِنْ رُءُوسِ مُرْتَفَعَاتِ الجِبَالِ العَالِيَةِ، فَكَلَّمَا وَصَلَ إِلَى أَعْلَى الجَبَلِ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ، ظَهَرَ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ اضْطِرَابُ قَلْبِهِ، وَتَهْدَأُ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ مُدَّةُ انْقِطَاعِ الوَحْيِ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَظْهَرُ لَهُ جِبْرِيلُ وَيُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَتَسْكُنُ نَفْسُهُ وَتَهْدَأُ.

وَفِي هَذَا شُبْهَةُ أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَاوَلَ الانْتِحَارَ، وَهَذَا مِنْ ضُرُوبِ الخَيَالِ وَالتَّلْفِيقِ؛ لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ:

-أَوَّلًا: لَمْ يَرِدْ عَنْهُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ عَنْ صَحَابَتِهِ المُقَرَّبِينَ لَهُ أَوْ غَيْرِهِمْ، فِي ذَلِكَ شَيْءٌ لَا صَحِيحٌ وَلَا ضَعِيفٌ.

-ثَانِيًا: أَنَّ مِنْ بَعْدِ قَوْلِ عَائِشَةَ:{ ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ } لَيْسَ مِنْ نَصّ الحَدِيثِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ كَلَامِ الزُّهْرِيّ الَّذِي أَخْبَرَ بِالحَدِيثِ عَلَى أَنَّهُ بَلَاغٌ، فَلَيْسَ عَلَى شَرْطِ البُخَارِيّ فِي شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهَا مَقْطُوعَةُ الإِسْنَادِ مِنْ أَوَّلِهَا.

-ثَالِثًا: رَوَى البُخَارِيُّ حَدِيثَ نُزُولِ الوَحْيِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ دُونَ ذِكْرِ هَذِهِ القِصَّةِ.

-وَفِي الحَدِيثِ: إِيمَانُ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ.

-وَفِيهِ:أَنَّ رُؤْيَا النَّبِيّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا وَحْيٌ إِلَهِيٌّ.

-وَفِيهِ: أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الوَحْيِ القُرْآنِيّ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }.

-وَفِيهِ: أَنَّ الخَائِفَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْأَلَ حَتَّى يَهْدَأَ.

-وَفِيهِ: أَنَّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ سَبَبٌ لِلسَّلَامَةِ مِنَ المَكَارِهِ.

-وَفِيهِ: مَدْحُ الإِنْسَانِ فِي وَجْهِهِ بِصِدْقٍ إِذَا لَمْ يُخْشَ عَلَيْهِ الغُرُورُ وَالإِعْجَابُ بِنَفْسِهِ.

-وَفِيهِ: مُحَاوَلَةُ التَّخْفِيفِ عَمَّنْ أَصَابَهُ الفَزَعُ، وَالتَّسْرِيَةِ عَنْهُ، وَتَطْمِينِ قَلْبِهِ، وَتَهْدِئَةِ نَفْسِهِ.

-وَفِيهِ: فَضْلُ خَدِيجَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وَرَجَاحَةُ عَقْلِهَا، وَحُسْنُ تَصَرُّفِهَا فِي المَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ.

-وَفِيهِ: عَلَى المُسْتَشَارِ أَنْ يُوَضِّحَ رَأْيَهُ، وَيَدْعَمَهُ بِالأَدِلَّةِ المُقْنِعَةِ.

(٢) وَمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ البُخَارِيُّ بِرَقَمِ (٣١٨٤) وَمُسْلِمٌ بِرَقَمِ (١٧٨٣) مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ-رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-: { أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَأْذِنُهُمْ لِيَدْخُلَ مَكَّةَ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ، وَلَا يَدْعُوَ مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ: فَأَخَذَ يَكْتُبُ الشَّرْطَ بَيْنَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَمْ نَمْنَعْكَ وَلَبَايَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ: أَنَا وَاللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَأَنَا وَاللهِ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: وَكَانَ لَا يَكْتُبُ، قَالَ: فَقَالَ لِعَلِيٍّ: امْحُ رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: وَاللهِ لَا أَمْحَاهُ أَبَدًا، قَالَ: فَأَرِنِيهِ، قَالَ: فَأَرَاهُ إِيَّاهُ فَمَحَاهُ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ وَمَضَتِ الأَيَّامُ، أَتَوْا عَلِيًّا، فَقَالُوا: مُرْ صَاحِبَكَ فَلْيَرْتَحِلْ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عَلِيٌّ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لِرَسُولِ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ ارْتَحَلَ .}

-وَفِي رِوَايَةٍ:{ لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي ذِي القَعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الكِتَابَ كَتَبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، قَالُوا: لَا نُقِرُّ لَكَ بِهَذَا، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: امْحُ رَسُولَ اللهِ، قَالَ عَلِيٌّ: لَا وَاللهِ، لَا أَمْحُوكَ أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الكِتَابَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، لَا يُدْخِلُ مَكَّةَ السِّلَاحَ إِلَّا

السَّيْفَ فِي القِرَابِ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتْبَعَهُ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا. فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الأَجَلُ أَتَوْا عَلِيًّا، فَقَالُوا: قُلْ لِصَاحِبِكَ: اخْرُجْ عَنَّا؛ فَقَدْ مَضَى الأَجَلُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، حَمَلَتْهَا، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ؛ قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَخَذْتُهَا، وَهِيَ بِنْتُ عَمِّي، وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتُهَا تَحْتِي، وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ: أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي، وَقَالَ لِزَيْدٍ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا، وَقَالَ عَلِيٌّ: أَلَا تَتَزَوَّجُ بِنْتَ حَمْزَةَ؟ قَالَ: إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ }.

• شَرْحُ الحَدِيثِ:

–لَاقَى النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنَ المُشْرِكِينَ الأَذَى، وَمَنَعُوهُ مِنَ البَيْتِ الحَرَامِ، وَقَدْ صَبَرَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حَتَّى مَكَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ، وَأَثْبَتَتِ الأَيَّامُ تَأْيِيدَهُ بِالوَحْيِ وَرَجَاحَةَ عَقْلِهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ.

–وَفِي هَذَا الحَدِيثِ يُخْبِرُ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَرَجَ مِنَ المَدِينَةِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الهِجْرَةِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُ العُمْرَةَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ذِي القَعْدَةِ، فَرَفَضَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْخُلَهَا حَتَّى صَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فِي عَامِهِ هَذَا، ثُمَّ يَعُودَ العَامَ المُقْبِلَ، وَعَلَى أَنْ يُقِيمَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ.

وَسُمِّيَ صُلْحَ الحُدَيْبِيَةِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ كَبِيرَةٌ سُمِّيَتْ بِبِئْرٍ هُنَاكَ، وَتُعَدُّ الآنَ ضَاحِيَةً مِنْ ضَوَاحِي مَكَّةَ.

-فَلَمَّا كَتَبُوا الكِتَابَ-وَالمُرَادُ بِهِ المُعَاهَدَةُ- كَانَ مِمَّا كَتَبُوهُ وَتَصَالَحُوا عَلَيْهِ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ }، أَيْ: هَذَا هُوَ العَهْدُ الَّذِي صَالَحَ عَلَيْهِ وَعَقَدَهُ { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ }، فَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ وَنُؤْمِنُ بِرِسَالَتِكَ مَا مَنَعْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلَكِنِ الَّذِي نَعْرِفُهُ عَنْكَ أَنَّكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، الَّذِي هُوَ اسْمُكَ وَاسْمُ أَبِيكَ المَعْرُوفُ عِنْدَنَا، فَقَالَ:{ أَنَا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ }، فَلَا مَانِعَ مِنْ كِتَابَةِ أَيِّهِمَا، ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلِيًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- -وَكَانَ كَاتِبَ المُعَاهَدَةِ-:

أَنْ يَمْحُوَ كَلِمَةَ{ رَسُولُ اللهِ } مِنَ الصَّحِيفَةِ، فَامْتَنَعَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنْ إِجَابَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي أَمْرِهِ، وَهَذَا لَيْسَ عِصْيَانًا مِنْهُ، وَلَكِنْ إِعْظَامًا وَتَقْدِيرًا وَنُصْرَةً لَهُ أَمَامَ المُشْرِكِينَ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الكِتَابَ، فَمَحَاهَا بِيَدِهِ بَعْدَ أَنْ أَشَارَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَيْهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، ثُمَّ أَمَرَ عَلِيًّا-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فَكَتَبَ:{ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ }، أَيْ: مَا صَالَحَ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ سِلَاحٌ يَحْمِلُهُ أَحَدٌ إِلَّا مَحْفُوظًا فِي جِرَابِهِ، وَأَلَّا يَخْرُجَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ مَكَّةَ بِأَحَدٍ

مِنْ أَهْلِهَا إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ عَلَى الإِسْلَامِ بَلْ يُبْقِيهِ فِي مَكَّةَ، وَأَلَّا يَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِمَكَّةَ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ تَحَلَّلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ عُمْرَتِهِمْ تِلْكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الرِّوَايَاتِ، ثُمَّ عَادَ فِي العَامِ التَّالِي وَدَخَلَ مَكَّةَ، وَسُمِّيَتْ عُمْرَتُهُمْ تِلْكَ بِعُمْرَةِ القَضَاءِ أَوِ القَضِيَّةِ، فَلَمَّا انْتَهَتِ الثَّلَاثَةُ أَيَّامٍ مُدَّةُ إِقَامَتِهِمْ بِمَكَّةَ عَلَى حَسْبِ مَا جَاءَ فِي المُعَاهَدَةِ، جَاءَ المُشْرِكُونَ إِلَى عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُبَلِّغَ صَاحِبَهُ -يُرِيدُونَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالرَّحِيلِ، فَتَبِعَتْهُمُ ابْنَةُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ -وَاسْمُهَا أُمَامَةُ، وَقِيلَ: فَاطِمَةُ- تُرِيدُ أَنْ تَرْحَلَ مَعَهُمْ إِلَى المَدِينَةِ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا -وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ صَغِيرَةً- وَقَالَ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَتِهِ وَبِنْتِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، أَيْ: خُذِيهَا، فَحَمَلَتْهَا فَاطِمَةُ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-، وَأَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَهَا، فَأَمَّا زَيْدٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ فَلِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ آخَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَمْزَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، وَأَمَّا عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ فَلِأَنَّهَا ابْنَةُ عَمِّهِ، وَأَمَّا جَعْفَرٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فَهِيَ بِنْتُ عَمِّهِ، وَزَوْجَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- خَالَتُهَا، وَكَنَّى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:{ وَخَالَتُهَا تَحْتِي }.

-فَحَكَمَ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِخَالَتِهَا، وَقَالَ:{ الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ }، أَيْ: أَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ فِي الحَضَانَةِ وَالعَطْفِ وَالرِّعَايَةِ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- :{ أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ } فِي النَّسَبِ وَالمَحَبَّةِ وَالأَسْبَقِيَّةِ إِلَى الإِسْلَامِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الفَضَائِلِ.

وَقَالَ لِجَعْفَرٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–:{ أَشْبَهْتَ خَلْقِي } وَهُوَ الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ، { وَخُلُقِي } وَهُوَ الصُّورَةُ البَاطِنَةُ مِنَ الأَخْلَاقِ وَالفَضَائِلِ، وَقَالَ لِزَيْدٍ:{ أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا }، أَيْ: أَخُونَا فِي الإِسْلَامِ وَعَتِيقُنَا، وَالوَلَاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ، وَمُنَاسَبَةُ هَذَا الكَلَامِ مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلثَّلَاثَةِ: أَنَّ فِيهِ جَبْرًا لِعَلِيٍّ وَزَيْدٍ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–، وَتَطْيِيبٌ لِقُلُوبِهِمَا؛ حَيْثُ حُرِمَا مَقْصُودَهُمَا مِنْ أَخْذِ الصَّبِيَّةِ، وَأَمَّا جَعْفَرٌ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، فَقَدْ حَصَلَ لَهُ مَقْصُودُهُ مِنْ أَخْذِ الصَّبِيَّةِ، وَأَنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ يُحْكَمْ بِهَا فِي الحَقِيقَةِ لِجَعْفَرٍ، وَلَكِنِ اسْتَحَقَّتْهَا الخَالَةُ.

–قِيلَ:هَذَا الحَدِيثُ أَصْلٌ فِي بَابِ الحَضَانَةِ؛ وَهُوَ القِيَامُ بِحِفْظِ مَنْ لَا يُمَيِّزُ وَلَا يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ، وَتَرْبِيَتِهِ بِمَا يُصْلِحُهُ، وَبِوِقَايَتِهِ عَمَّا يُهْلِكُهُ.

–وَعَرَضَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ بِنْتِ حَمْزَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ؛ فَأَبُوهَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ أَخُوهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرَّضَاعَةِ، قَدْ أَرْضَعَتْهُمَا ثُوَيْبَةُ جَارِيَةُ أَبِي لَهَبٍ، وَيَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ.

–وَفِي الحَدِيثِ: مَشْرُوعِيَّةُ الصُّلْحِ مَعَ الكُفَّارِ، وَعَقْدُ الاتِّفَاقِيَّاتِ وَالمُعَاهَدَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالعَسْكَرِيَّةِ مَعَهُمْ لِصَالِحِ المُسْلِمِينَ.

–وَفِيهِ:أَنَّ لِلْخَالَةِ حَقًّا فِي الحَضَانَةِ.

–وَفِيهِ: فَضْلٌ وَمَنْقَبَةٌ لِكُلٍّ مِنْ عَلِيٍّ وَجَعْفَرٍ وَزَيْدٍ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ–.

-وَفِيهِ:أَنَّ مِنْ هَدْيِهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَبْدَأَ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ فِي المُكَاتَبَاتِ وَالرَّسَائِلِ بَيْنَ النَّاسِ.

-وَفِيهِ: تَنَازُلُ القَائِدِ عَنْ بَعْضِ حُقُوقِهِ المَعْلُومَةِ لِلْجَمِيعِ حَتَّى يَتِمَّ الصُّلْحُ.

• وَمِنَ الأَدِلَّةِ القَاطِعَةِ عَلَى أُمِّيَّتِهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَنَّهُ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ كُتَّابًا يَكْتُبُونَ الوَحْيَ، وَلَمْ يَذْكُرِ التَّارِيخُ أَنَّهُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَامَ بِكِتَابَةِ الوَحْيِ بِنَفْسِهِ وَلَوْ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَوْ كَانَ يُجِيدُ القِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ لَفَعَلَ ذَلِكَ وَنُقِلَ عَنْهُ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ البَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ يَقُولُ:{ لَمَّا نَزَلَتْ:{ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }.(النِّسَاء: ٩٥)، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- زَيْدًا، فَجَاءَ بِكَتِفٍ فَكَتَبَهَا، وَشَكَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ضَرَارَتَهُ، فَنَزَلَتْ:{ لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ }.(النِّسَاء:٩٥).،فَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ لِمَاذَا بَعَثَ إِلَى زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِكَيْ يَأْتِيَ لَهُ لِيَكْتُبَ هَذِهِ الآيَةَ.

• وَمِنَ الأَدِلَّةِ أَيْضًا الشُّهْرَةُ المُسْتَفِيضَةُ عِنْدَ كَافَّةِ العُلَمَاءِ أَنَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ أُمِّيًّا، حَتَّى يَكَادُ أَنْ يَكُونَ إِجْمَاعًا بَيْنَهُمْ، نَرَى ذَلِكَ عِنْدَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ، وَأَصْحَابِ الحَدِيثِ، وَالمُفَسِّرِينَ، وَأَصْحَابِ السِّيَرِ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَؤُلَاءِ قَدْ خَفِيَتْ عَلَيْهِمُ الحَقِيقَةُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ وَهْمًا، حَتَّى أَتَى هَؤُلَاءِ المُتَشَكِّكُونَ بَعْدَ هَذِهِ السِّنِينَ المُتَطَاوِلَةِ، لِيُصَحِّحُوا خَطَأَهُمْ، وَيُظْهِرُوا لَهُمْ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ.

• هَذِهِ هِيَ أَهَمُّ الدَّلَائِلِ عَلَى أُمِّيَّةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهِيَ وَاضِحَةٌ ظَاهِرَةٌ لَا تَحْتَمِلُ شَكًّا أَوْ تَأْوِيلًا، وَلَكِنْ أَبَى المُلْحِدُونَ وَالمُتَشَكِّكُونَ إِلَّا أَنْ يُشَغِّبُوا بِبَعْضِ المُشَاغَبَاتِ، وَيَأْتُوا بِبَعْضِ الاعْتِرَاضَاتِ، وَيَتَمَسَّكُوا بِبَعْضِ مَا يَتَوَهَّمُونَهُ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:{ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا }.(الفُرْقَان:٥)، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ المُتَشَكِّكُونَ:

هَا هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَدْ كَتَبَ القُرْآنَ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ؛ لِذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ فِي دَعْوَتِهِ.

• وَالجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ:

–أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ كَانُوا مُعَانِدِينَ لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي دَعْوَتِهِ، وَنَاصَبُوهُ مِنْ أَجْلِهَا العَدَاءَ، لِذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَرْمُوهُ بِكُلِّ كَذِبٍ، وَيَصِمُوهُ بِكُلِّ بُهْتَانٍ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ كَذِبُهُمْ عَلَى هَذَا الافْتِرَاءِ، بَلْ قَالُوا عَنْهُ أَنَّهُ سَاحِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَشَاعِرٌ مَجْنُونٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الافْتِرَاءَاتِ وَالأَكَاذِيبِ، لِذَلِكَ شَهَادَةُ الكَافِرِينَ عَلَيْهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَرْدُودَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ أَلَدُّ أَعْدَائِهِ، وَإِذَا كَانَتْ شَهَادَةُ العَدُوِّ عَلَى عَدُوِّهِ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ فِي أَعْرَافِ النَّاسِ، وَلَا يُؤْخَذُ بِهَا فِي إِثْبَاتِ الحَقِّ، فَكَيْفَ تَقْبَلُونَهَا فِي أَمْرٍ هُوَ أَخْطَرُ الأُمُورِ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَهُوَ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ الَّتِي مَدَارُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ عَلَيْهَا؟!.

• مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ كَانَ عَلَى فَرْضِ أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ بِالفِعْلِ ادَّعَوْا أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَتَبَ القُرْآنَ بِيَدِهِ وَنَسَخَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، لَكِنْ عِنْدَمَا

نُمْعِنُ النَّظَرَ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ ادَّعَوْا أَنَّ القُرْآنَ كُتِبَ لِلنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَ كَاتِبًا أَنْ يَكْتُبَ لَهُ القُرْآنَ، وَيَنْسَخَهُ لَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْنَى الفِعْلِ { اكتتب }، فَهَذِهِ الصِّيغَةُ تَدُلُّ عَلَى التَّكَلُّفِ وَالافْتِعَالِ؛ أَيْ: إِنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَكَلَّفَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ هَذَا القُرْآنَ، وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالفِعْلِ هُوَ الذِي كَتَبَ القُرْآنَ بِيَدِهِ، لَقَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ:

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ كَتَبَهَا، بَدَلَ الفِعْلِ { اكتتبها }، ثُمَّ ادَّعَى كُفَّارُ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، كَانَ يَأْمُرُ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ مَا نَسَخَهُ حَتَّى يَحْفَظَهُ وَيُبَلِّغَهُ أَصْحَابَهُ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:{ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا }، وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ مَا قَالُوا ذَلِكَ إِلَّا لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ أُمِّيٌّ وَاشْتَهَرَ هَذَا عِنْدَهُمْ؛ لِذَلِكَ عِنْدَمَا افْتَرَوْا عَلَيْهِ قَالُوا: أَنَّهُ تَكَلَّفَ فِي إِيجَادِ أَشْخَاصٍ كَاتِبِينَ يَكْتُبُونَ لَهُ هَذَا القُرْآنَ، ثُمَّ يَقْرَؤُونَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مَا نَسَخُوهُ بِأَيْدِيهِمْ بُكْرَةً وَأَصِيلًا لِيَحْفَظَهُ.

–يَقُولُ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورَ–رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–:{ وَالاكْتِتَابُ: افْتِعَالٌ مِنَ الكِتَابَةِ، وَصِيغَةُ الافْتِعَالِ تَدُلُّ عَلَى التَّكَلُّفِ لِحُصُولِ الفِعْلِ؛ أَيْ حُصُولِهِ مِنْ فَاعِلِ الفِعْلِ، فَيُفِيدُ قَوْلُهُ: اكتتبها أَنَّهُ تَكَلَّفَ أَنْ يَكْتُبَهَا، وَمَعْنَى هَذَا التَّكَلُّفِ أَنَّ النَّبِيَّ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– لَمَّا كَانَ أُمِّيًّا كَانَ إِسْنَادُ الكِتَابَةِ إِلَيْهِ إِسْنَادًا مَجَازِيًّا، فَيَقُولُ المَعْنَى: أَنَّهُ سَأَلَ مَنْ يَكْتُبُهَا لَهُ؛ أَيْ يَنْقُلُهَا، فَكَانَ

إِسْنَادُ الاكْتِتَابِ إِلَيْهِ إِسْنَادًا مَجَازِيًّا؛ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ، وَالقَرِينَةُ مَا هُوَ مُقَرَّرٌ لَدَى الجَمِيعِ مِنْ أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ، وَمِنْ قَوْلِهِ: فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَوْ كَتَبَهَا لِنَفْسِهِ لَكَانَ يَقْرَؤُهَا بِنَفْسِهِ، فَالمَعْنَى: اسْتَنْسَخَهَا، وَهَذَا كُلُّهُ حِكَايَةٌ لِكَلَامِ النَّضْرِ بِلَفْظِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ، وَمُرَادُ النَّضْرِ بِهَذَا الوَصْفِ تَرْوِيجُ بُهْتَانِهِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ هَذَا الزُّورَ مَكْشُوفٌ قَدْ لَا يُقْبَلُ عِنْدَ النَّاسِ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ النَّبِيَّ أُمِّيٌّ، فَكَيْفَ يَسْتَمِدُّ قُرْآنَهُ مِنْ كُتُبِ الأَوَّلِينَ، فَهَيَّأَ لِقَبُولِ ذَلِكَ أَنَّهُ كُتِبَتْ لَهُ، فَاتَّخَذَهَا عِنْدَهُ فَهُوَ يُنَاوِلُهَا لِمَنْ يُحْسِنُ القِرَاءَةَ، فَيُمْلِي عَلَيْهِ مَا يَقُصُّهُ القُرْآنُ }.(يُنْظَر:التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ:١٨/٣٢٥).

• وَبِالطَّبْعِ هَذَا الافْتِرَاءُ بُطْلَانُهُ يُغْنِي عَنْ إِبْطَالِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا، فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ الأَشْخَاصُ؟ وَمَنْ هُمْ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يَنْسُبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ بَدَلَ أَنْ يَنْسُبَهُ لِلنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهَلْ يَصِحُّ فِي مَنْطِقِ العُقُولِ أَنْ يَدَّعِيَ الرَّسُولُ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّ هَذَا القُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُنَاكَ أَشْخَاصٌ يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الأَمْرِ، وَيَسْتَطِيعُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ أَنْ يُبْطِلُوا قَوْلَهُ، وَيَدْحَضُوا رِسَالَتَهُ، فَيُظْهِرُونَ الحَقِيقَةَ أَمَامَ النَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَعَ تَهَافُتِ هَذِهِ الفِرْيَةِ فَقَدْ أَشَاعَهَا الكُفَّارُ عَلَى رَسُولِ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهَكَذَا الحِقْدُ فِي القُلُوبِ، وَاللَّدَدُ فِي الخُصُومَةِ تَجْعَلُ الإِنْسَانَ يَأْتِي بِالعَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ الَّتِي لَا تَجِدُ طَرِيقَهَا إِلَى العُقُولِ، وَلَا سَبِيلَهَا إِلَّا القُلُوبَ

• وَمِمَّا اعْتَرَضُوا بِهِ عَلَى أُمِّيَّةِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَوْلُهُ تَعَالَى:{ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً }.(البَيِّنَة: ٢)، فَقَالُوا: إِنَّ الآيَةَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ صُحُفٍ أَمَامَهُ، وَلَا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَتَوْا بِهَذَا التَّفْسِيرِ، فَمِنَ المَعْلُومِ قَطْعًا أَنَّ القُرْآنَ يُقْرَأُ وَيُتْلَى مِنَ الصُّدُورِ، كَمَا يُقْرَأُ مِنَ الصُّحُفِ وَالسُّطُورِ، فَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ مِنْ حِفْظِهِ بِلَا مُصْحَفٍ أَمَامَهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَرَأَ القُرْآنَ وَتَلَاهُ، وَهَذَا وَاضِحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، لِذَلِكَ لَا مُتَمَسَّكَ لَهُمْ بِهَذِهِ الآيَةِ فِي التَّدْلِيلِ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ.

–إِذًا لَيْسَ فِي هَذِهِ الآيَةِ مَا يَدُلُّ مُطْلَقًا عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، بَلْ عَلَى العَكْسِ فِيهَا مَا يُؤَكِّدُ أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–

• وَمِمَّا اعْتَرَضُوا بِهِ عَلَى أُمِّيَّةِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا–قَالَ:{ لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَجَعُهُ قَالَ: ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، قَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– غَلَبَهُ الوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا، فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ، قَالَ:قُومُوا عَنِّي، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ، فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ:إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ، مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَبَيْنَ كِتَابِهِ }.(أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ:١١٤).

: –فَقَالُوا: هُنَا طَلَبَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِكِتَابٍ لِيَكْتُبَ لَهُمْ، وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ أَنَّهُ يَكْتُبُ.

• وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ:

-أَنَّهُمْ لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِأَسَالِيبِ البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ، لَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ نِسْبَةِ الفِعْلِ إِلَى سَبَبِهِ أَوِ الآمِرِ بِهِ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ بَلَاغِيٌّ اسْمُهُ (المَجَازُ العَقْلِيُّ)، فَعِنْدَمَا أَقُولُ: بَنَى الأَمِيرُ المَدِينَةَ، فَبِالقَطْعِ الأَمِيرُ لَا يَقُومُ بِالبِنَاءِ بِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ؛ لِذَلِكَ نُسِبَ البِنَاءُ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ هُنَا، إِذًا مَعْنَى:{ ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ }:

آمُرُ بِالكِتَابَةِ لَكُمْ، فَنَسَبَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِعْلَ الكِتَابَةِ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ مَنْ سَيَأْمُرُ بِكِتَابَةِ هَذَا الكِتَابِ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ مَرِيضًا، وَطَرِيحَ الفِرَاشِ، وَقَدْ غَلَبَهُ الوَجَعُ وَهَذَا هُوَ سَبَبُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ-رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُمْلِيَ الرَّسُولُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هَذَا الكِتَابَ عَلَى مَنْ يَكْتُبُهُ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فِي الحَدِيثِ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنَّ مَنْ هَذَا حَالُهُ سَوْفَ يَكْتُبُ بِيَدِهِ كِتَابًا مُطَوَّلًا فِيهِ مَا يَحْتَاجُهُ المُسْلِمُونَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا؟ إِنَّ هَذَا شَيْءٌ مُسْتَبْعَدٌ، وَلَكِنَّ المَقْبُولَ عَقْلًا وَمَنْطِقًا أَنْ يَأْتِيَ بِكَاتِبٍ يُمْلِي عَلَيْهِ هَذَا الكِتَابَ.

• مِمَّا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ لَنَا بِالدَّلِيلِ القَاطِعِ وَالبُرْهَانِ السَّاطِعِ أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ أُمِّيًّا، وَأَنَّ أُمِّيَّتَهُ هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الأَدِلَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِي رِسَالَتِهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

• بَقِيَتْ لَنَا مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ هِيَ:

• مَا حُكْمُ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِالنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟

• الجَوَابُ:

–مَنِ اسْتَهْزَأَ بِاللهِ أَوْ بِآيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ أَوِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ بِرُسُلِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّ مُنَافَاةَ الاسْتِهْزَاءِ لِلْإِيمَانِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ؛ إِذْ كَيْفَ يَسْخَرُ وَيَسْتَهْزِئُ بِأَمْرٍ يُؤْمِنُ بِهِ؟! فَالمُؤْمِنُ بِالشَّيْءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ مَا يَلِيقُ بِهِ.

–وَالكُفْرُ كُفْرَانِ: كُفْرُ إِعْرَاضٍ،وَكُفْرُ مُعَارَضَةٍ، وَالمُسْتَهْزِئُ كَافِرٌ كُفْرَ مُعَارَضَةٍ، فَمَنْ سَخِرَ أَوِ اسْتَهْزَأَ بِالصَّلَاةِ وَلَوْ نَافِلَةً، أَوْ بِالزَّكَاةِ، أَوِ الصَّوْمِ، أَوِ الحَجِّ، فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، كَذَلِكَ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِالآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ بِأَنْ قَالَ مَثَلًا: إِنَّ وُجُودَ الحَرِّ فِي أَيَّامِ الشِّتَاءِ سَفَهٌ، أَوْ قَالَ: إِنَّ وُجُودَ البَرْدِ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ سَفَهٌ، فَهَذَا كُفْرٌ مُخْرِجٌ عَنِ المِلَّةِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ أَفْعَالِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الحِكْمَةِ.

• فَمَنِ اسْتَهْزَأَ بِالرَّسُولِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فَقَدْ كَفَرَ كُفْرًا مُخْرِجًا مِنَ المِلَّةِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى:{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ }.(التَّوْبَة:٦٥–٦٦).

-قَالَ الرَّازِيُّ مُبَيِّنًا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ مِنَ الأَحْكَامِ:{ الحُكْمُ الأَوَّلُ: أَنَّ الاسْتِهْزَاءَ بِالدِّينِ كَيْفَ كَانَ، كُفْرٌ بِاللهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الاسْتِهْزَاءَ يَدُلُّ عَلَى الاسْتِخْفَافِ؛ وَالعُمْدَةُ الكُبْرَى فِي الإِيمَانِ تَعْظِيمُ اللهِ تَعَالَى بِأَقْصَى الإِمْكَانِ؛ وَالجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ.

-الحُكْمُ الثَّانِي: أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: الكُفْرُ لَا يَدْخُلُ إِلَّا فِي أَفْعَالِ القُلُوبِ.

-الحُكْمُ الثَّالِثُ: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمُ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُمْ كُفْرٌ فِي الحَقِيقَةِ، وَإِنْ كَانُوا مُنَافِقِينَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ الكُفْرَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَدَّدَ مِنَ الكَافِرِ حَالًا فَحَالًا.

-الحُكْمُ الرَّابِعُ: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الكُفْرَ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ }.(يُنْظَر:تَفْسِيرُ الرَّازِيّ:١٦/٩٥).

• وَيُسْتَفَادُ مِنَ الآيَتَيْنِ: أَنَّ الاسْتِهْزَاءَ بِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ: مِنْ أَعْظَمِ الكُفْرِ، بِدَلِيلِ الاسْتِفْهَامِ وَالتَّوْبِيخِ.

-وَأَنَّ الاسْتِهْزَاءَ بِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ اسْتِهْزَاءً وَقُبْحًا؛ لِقَوْلِهِ:{ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ } وَتَقْدِيمُ المُتَعَلِّقِ يَدُلُّ عَلَى الحَصْرِ، كَأَنَّهُ مَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ تَسْتَهْزِئُوا بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا مَحَلًّا لِلاسْتِهْزَاءِ، بَلْ أَحَقُّ الحَقِّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ.

-وَأَنَّ المُسْتَهْزِئَ بِاللهِ يَكْفُرُ؛ لِقَوْلِهِ:{ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُم }.

-وَيُسْتَفَادُ أَيْضًا:قَبُولُ تَوْبَةِ المُسْتَهْزِئِ بِاللهِ؛ لِقَوْلِهِ:

{ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ }، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ وَقَعَ؛ فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ عُفِيَ عَنْهُ وَهُدِيَ لِلْإِسْلَامِ وَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ لِلْقَوْلِ الرَّاجِحِ؛ أَنَّ المُسْتَهْزِئَ بِاللهِ

تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ بَيِّنٍ عَلَى صِدْقِ تَوْبَتِهِ؛ لِأَنَّ كُفْرَهُ مِنْ أَشَدِّ الكُفْرِ، أَوْ هُوَ أَشَدُّ الكُفْرِ، فَلَيْسَ مِثْلَ كُفْرِ الإِعْرَاضِ أَوِ الجُحُودِ.

• وَسَبَبُ نُزُولِ الآيَاتِ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي التَّفْسِيرِ بِرَقَمِ (١٨٢٩/٦) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- مَرْفُوعًا قَالَ:{ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ لَا أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ, فَقَالَ رَجُلٌ فِي المَجْلِسِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَنَزَلَ القُرْآنُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحِقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ تَنْكُبُهُ الحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ, وَرَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:{ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ }.

• فَلَا بُدَّ مِنَ الأَخْذِ عَلَى يَدِ هَؤُلَاءِ العَابِثِينَ غِيرَةً عَلَى الدِّينِ وَحِفْظًا لِمَقَامِ النَّبِيِّ الأَمِينِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُومُ بِذَلِكَ وُلَاةُ أَمْرِ المُسْلِمِينَ، فَتَطْبِيقُ الحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ تُنَاطُ بِهِمْ إِقَامَةً لِلْعَدْلِ ، وَحِفْظًا لِلدِّينِ ، وَأَمْنًا وَاسْتِقْرَارًا لِلْبِلَادِ وَالعِبَادِ.

• فَاللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِكُلِّ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِنَبِيِّنَا ، سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ ، وَاجْعَلْهُ عِبْرَةً وَآيَةً ، وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

وَأَتْبَاعِهِ كُلَّمَا ذَكَرَكَ الذَّاكِرُونَ ، وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِكَ الغَافِلُونَ ،وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

• كَتَبَهُ: خَادِمُكُمْ وَمُحِبُّكُمْ فِي اللهِ أَبُو أَحْمَدَ سَيِّدُ عَبْدُ العَاطِي بْنُ مُحَمَّدٍ الذَّهَبِيُّ غَفَرَ اللهُ لَهُ وَعَفَا عَنْهُ.

مع تحيات

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية